دور الإعلام في عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
(خطب النساء وبلاغاتهن – رسائل إعلامية)
(خطبة الزهراء (ع) إنموذجاً)

بيان العريض

نطاق البحث /

بلاغات النساء وكلامهن في الكتب التاريخية

(بلاغات نساء ابن طيفور – العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي)

هدف البحث /

١- تبيان دور خطب النساء ومقالتهن في ترسيخ المفاهيم الإسلامية التي أقامتها دولة أبي الحسن (ع) .

٢- إظهار مناقب ولاية الإمام علي (ع) ونقائص ولاية معاوية من خلال هذه الخطب .

٣- الاستدلال على توثيق هذه الخطب والبلاغات لأحداث ووقائع جرت في معارك ذلك العهد وأرخت لها ، وحفظتها من الاندثار .

محاور البحث /

١- خطب الزهراء عليها السلام وأقوالها في عهد ما بعد النبي (ص) حتى وفاتها .

٢- خطبة الزهراء (ع) في المسجد النبوي وثيقة إعلامية ضمت مضامين ثرة .

٣- خطبة الزهراء (ع) للنساء ، شهادة بأحقية ولاية الإمام علي (ع) وتبيان من أين جاء الرفض ولم كان .

٤- خطب النساء الوافدات على معاوية ومقالتهن في الإمام علي (ع) ومزايا عهده ، وموقفهن المبدئي منه في حالات الحرب والسلم ، وفي حياته وبعد استشهاده .

نتائج البحث /

١- خطب الزهراء (ع) كانت رسائل إعلامية ألقيت في محفل رسمي عام ، لجمهور كبير من المسلمين – المتلقين لمضامين هذه الرسالة .

٢- كانت خطب الزهراء (ع) أداة إعلامية متكاملة الأداء والتأثير بمن حولها وسردت بوصف بلاغي معجز حقوق الإمامة والولاية .

٣- خطب الزهراء (ع) أظهرت حقائق القضية وأظهرتها كقضية رأي عام لابد من كشفها والدفاع عنها .

٤- كانت خطب الزهراء (ع) لسان حال المعارضة وكانت بحججها التي أوردتها أمضى من حد السيف لاستشهادها بآيات الكتاب الكريم وأحاديث النبي محمد (ص) .

٥- أكدت خطب النساء الوافدات على معاوية أن خطبهن كانت من أنجع الوسائل الإعلامية لبعد أثرها في النفوس وحفظ التاريخ لها .

كما كانت المرأة حاضرة في أقوال وخطب الإمام علي عليه السلام ، كذلك كان علي حاضراً في خطب النساء وبلاغتهن التي نقلتها لنا المراجع التاريخية .

إن التأكيد على خطب النساء أو بلاغاتهن هنا لتوضيح ما لهذه الوسيلة التوثيقية من أهمية في حفظ وقائع تاريخية حدثت في أزمان غير زماننا ، كما أن الخطبة كانت تعتبر الوسيلة الإعلامية الأمضى أثراً في نفوس المتلقين آنذاك فالعرب ككيان مجتمعي ، وحضارة حية ، اعتزوا بالكلمة وإلقائها ، وكانت مشاهدهم ووقفاتهم الحاسمة تؤطرها خطب وأشعار تلقى فتبين الهدف من الجمع أو المشهد ، ثم تثير المشاعر وتخطف العقول بأفكار تصوغها كلمات تتناقلها فيما بعد الأفواه إلى أبعد مدياتها ، فتصبح وثيقة حية لا تموت تؤطر حياتهم وما مر بهم من وقائع .

وحيثما كانت الكلمة لها هذا الوقع المبين في أنفسهم فإن الله عز وجل قد أنزل عليهم معجزة نبيهم من لدنها ، فكانت كلمات معجزات في كتاب معجز منزل من السماء اسمه القرآن .

وسوف نتناول في بحثنا هذا بلاغات النساء من خطب ذكرت الإمام علي عليه السلام وما له من فضل وأسبقية في الإسلام ، وسنسلط الضوء على خطب سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء التي بينت فيها خصال أبي الحسن وانتصارها له ، مع بعض خطب للوافدات على معاوية ممن اشتملت كلماتهن على شهادات لفظية راقية حفظت للإمام علي (ع) إمامته ووصايته بعد النبي ، وأبانت مدى الإعزاز والتقدير الذي أكنته قلوب هذه النسوة إزاء علي في حياته وبعد استشهاده .

كان علي حاضراً في خطب وأقوال الزهراء عليها السلام تصريحاً وتلميحاً ، في دفاعها عنه وعن حقه في الخلافة بعد النبي المصطفى صلى الله عليه وآله ، وكذلك كان حاضراً في خطب من صاحبه ومن أحبه ، لا أحد يستطيع نكران فضله وسمو خصاله وتعدد فضائله .

ولو تفحصنا خطب الوافدات على معاوية لوجدنا كماً من الأقوال البلاغية ، جاءت على ألسن أنطقها الحق ولم تأخذهن فيه لومة لائم ، فلم يمنعهن الخوف من جور سلطان معاوية غريم علي وقاتله ، أن يذكرن لأبي الحسن بعض من فيض محاسنه . فقد لاحق معاوية كل أصحاب علي ومريديه وقتلهم شر قتلة ، وهم المتبتلين في حب علي ، ذاك النور المحمدي الحاضر بينهم وإن غاب عنهم ، وما خطبة ضرار فيه ببعيدة عن الأذهان .

ويبقى للنساء شرف الوقوف هذا الموقف المبدئي من الإمام علي (ع) ، والقائلات فيه مقالة أرختها صفحات التاريخ ، ووثقتها الكتب والمراجع ، فأصبحت من درر الكلم ومأثور القول .

قلنا ، إن هذه الخطب هي وسيلة إعلامية ، ورسائل إعلامية فائقة الأهمية نشرها معاوية رغماً عنه ، ودون أن يدري إن استنطاقه لهؤلاء النسوة ، إنما كان يسجل شهادات تقدير (رسمية) تاريخية بحق علي .

أما الزهراء عليها السلام فقد لعبت دوراً إعلامياً متميزاً بإلقائها خطبتها في المسجد النبوي الشريف ، ومن ثم أقوالها لمن زارها من النساء في بيتها بعد احتجابها عن المجتمع الظالم لها ، وهي دائمة التذكير بحق زوجها قائلة : (ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له أن يصنع ... ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم)[1] .

إن موقف الزهراء عليها السلام ، السياسي – الإعلامي في توضيح (ما هي الإمامة) في ذاك اليوم وفي تلك الخطبة العصماء هو موقف عظيم ، فهي عليها السلام لم تكن معزولة عن حركة

[1] مريم فضل الله ، ص ٢١٠ .

المجتمع ، ولا عن تداعيات الموقف ، وقضايا العدل والظلم ، بل كانت تشارك مشاركة حقيقية ، حسب ما قدر لها ، فهي رغم أنها عليها السلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وزوجة علي عليه السلام وسيدة نساء العالمين وأطهر النساء ، وأبعدهن عن الدنس ، وتتمثل فيها كل صفات الكمال ، لكنها لم تتخل عن مسؤولياتها عندما واجهت الانحراف والظلم ، فقد كانت عليها السلام على استعداد لتحمل كل المحن والأذى[٢] .

فالزهراء عليها السلام في وقفتها تلك لم تكن راغبة في الظهور إلى العلن لمجرد الظهور ليس إلا ، بل إنها كانت عازفة عن كل الخلق لجثوم حزنها على أبيها المصطفى على قلبها ، وانذهالها عن الحياة ومباهجها ، وركونها إلى سكب الدمعة في بيت الأحزان .

وأمسكت الزهراء صامتة لا تعقب ، ومضت أيام بعد وفاة النبي (ص) وهي في عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها الذي أباه عليها أبو بكر ، وهل أبقى لها الحزن من قوة تسعفها على نضال ..؟ وكانت بحيث تظل منطوية على جراحها وحزنها ، لو لم يدعها الواجب ، أن تؤدي حق زوجها وولديها عليها ، فتسعى في رد الأمر إلى أهل بيت الرسول[٣] .

لقد عرفنا ما كانت عليه الزهراء عليها السلام من خشونة الحياة وشظف العيش ، وكانت الدنيا في عينيها أحقر من ذبابة طفيلية تنظر إليها باشمئزاز ، ولهذا كانت أكبر من أن تنازع ، أو تخاصم أحداً لأجل الإرث المادي وغيره من متاع الدنيا ، فهي تعلم علم اليقين بأن حياتها قصيرة لا تبقى بعد أبيها إلا أياماً معدودات كما أخبرها النبي بذلك[٤] .

ولكن الزهراء (ع) كان لابد لها من هذه الوقفة ، ولولا موقفها في ذلك اليوم المشهود ، إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام لكان من الممكن أن تخفى الإمامة على الأجيال التي جاءت بعد علي عليه السلام . وتتشوه الحقائق وتتغير ، ولولا إكمالها دور علي (ع) في ذلك اليوم ، لكان من الممكن اختفاء حقيقة وصاية علي وولايته على كل المسلمين في الأجيال اللاحقة للرعيل الأول . لقد كان للزهراء في خطبتها وأقوالها تلك دور عظيم في حفظ الإسلام ، والحقائق الإسلامية ، والمنهج والمذهب الصحيح الذي توارثته الأجيال عن أهل البيت عليهم السلام[٥] . وهذا الدور شبيه إلى حد كبير

---

[٢] محمد باقر الحكيم ، الزهراء عليها السلام ..، ص ٤٢ .
[٣] ذكر تفاصيل هذه الأحداث ، ابن سعد في طبقاته / ج٢ ، ص ٦٠ وما بعدها ؛ وكذلك البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن حنبل .
[٤] مريم فضل الله ، ص٢١٣ .
[٥] محمد باقر الحكيم ، ص ٤٢ .

، بتكاملية الدور الرسالي الذي وقفه أبنائها من بعدها (الحسين وزينب عليهما السلام) في كربلاء ، ولولا هذا التكامل في الأدوار لم يحفظ الدين ، ولم يبق .

ها هي فاطمة الزهراء عليها السلام تخاطب أبي بكر موضحة منزلتها ومنزلة زوجها علي من الرسول إن أنكروا أو تجاهلوا بالقول : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تعرفوه تجدوه أبي دون آبائكم وأخا بن عمي دون رجالكم)[٦] . ثم تأخذ في تبيان حسن بلاء أبي الحسن (ع) في الحروب التي خاضها النبي والمسلمين قائلة : (كلما حشوا ناراً للحرب أطفأها ونجم قرن الضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها ، فلا ينكفئ حتى يطأ حماقها بأقمصه ويخمد لهبها بحده مكدوداً في ذات الله قريباً من رسول الله سيداً في أولياء الله وأنتم في بلهنية وادعون آمنون)[٧] .

ومن بعد إظهار الزهراء (ع) لموقف علي في الحرب وموقفهم ، تعرج على انكفائهم وانقلابهم عن الرسول بعد موته بلحظات ، قائلة : (هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل) مشيرة بذلك إلى ما كان منهم عند وفاة النبي (ص) ، فإنهم انصرفوا عن غسله إلى تنصيب خليفة عليهم يلي أمورهم بعد النبي ولم يشتغل بغسله وتكفينه إلا علي وآل البيت عليهم السلام .

ويذكر زيد بن علي عن عمته زينب بنت الحسين عليهم السلام رواية مشابهة لهذه الخطبة وظروفها بالقول : (لما بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها فدك لاثت خمارها وخرجت في حشدة نسائها ولمة من قومها تجر أذراعها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً حتى وقفت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار ، فأنت أنة أجهش لها القوم بالبكاء[٨] .

إن الزهراء (ع) ما أرادت إلا أن تلقي برسالتها الإعلامية المتكاملة الأركان ، البينة في حججها على ملأ من الناس ، وأكبر جمع من المستمعين لها ، لتكون حجة على من أصغى إليها وتلقى الرسالة ، وأن تضمن وصولها إلى أكبر عدد ممن حضرها ولم يحضرها . فقد كان لها أن ترسل الإمام علي عليه السلام في طلب أبي بكر ومن التف حوله في إمضاء أمره ، وتسلمه رسالتها إليه ، ولكنها أعطت درساً تاريخياً في ضرورة إظهار الحق والصدع به إينما كان ، بأسلوب الإعلان

[٦] أحمد بن أبي طاهر طيفور ، بلاغات النساء ، ص ٢٤ .
[٧] المصدر نفسه .
[٨] ابن طيفور ، ص ٢٦ .

والإعلام لأكبر عدد من المتلقين ، حتى إنها عليها السلام كانت غالباً ما تلتفت إلى أهل المجلس[٩] مخاطبة لهم ومذكرة بواجباتهم ومواقفهم من الرسول والرسالة المحمدية .

فهي القائلة لهم : (ثم انتم عباد الله نصب أمر الله ونهيه وحملة دينه ووحيه وأمناء الله على أنفسكم وبلغاؤه إلى الأمم زعمتم حقاً لكم الله فيكم عهد قدمه إليكم ونحن بقية استخلفنا عليكم ومعنا كتاب الله بينة بصائره ..)[١٠] ، أي زعمتم أن لكم حقاً في الخلافة أو في منعنا الإرث فأين عهد الله لكم بذلك ؟!

أو تقول لهم (معاشر المسلمة المسرعة إلى قبل الباطل المغضية عن الفعل الخاسر ..) أو قولها للأنصار : (معاشر النقباء وأعضاء البقية وأنصار الدين والملة وحضنة الإسلام ، ما هذه الغميزة في حقي والإعراض عن ظلامتي ؟ أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبي يقول : المرء يحفظ في ولده ؟ ... إيها بني قيلة[١١] أهظم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ..)[١٢] .

إن الزهراء عليها السلام وهي الشمس المشرقة في المجتمع وغير المخفية شخصها الكريم عن الحضور ، ما كنت تبدأ خطبتها – رسالتها الإعلامية إلا بالتعريف هكذا : (أيها الناس أنا فاطمة وأبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ..)[١٣] . و(.. بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته)[١٤] .

وها هو أبو بكر يرد عليها مؤكداً صدق كلامها وحججها التي أوردتها قائلاً لها : (.. كان أباك دون النساء وأخا ابن عمك دون الرجال آثره على كل حميم وساعده على الأمر العظيم ، لا يحبكم إلا العظيم السعادة ولا يبغضكم إلا الرديء الولادة وأنتم عترة الله الطيبون وخيرة اللله المنتخبون على الآخرة أدلتنا وباب الجنة لسالكنا وأما منعك ما سألت فلا ذلك لي ...)[١٥] .

هذه الخطبة العصماء وإن كنا اعتمدنا على ما رواه ابن طيفور وابن شهرآشوب إلا أن الخطبة رواها آخرين منهم : الجوهري[١٦] ، والمسعودي في مروج الذهب ، وابن أبي الحديد[١٧] ، والأربلي[١٨] ، والسيد المرتضى في الشافي ، والعلامة المجلسي[١٩] ، والطبرسي[٢٠] ، والطوسي[٢١] ، والطبري[٢٢] .

---

[٩] المصدر نفسه ، ص ٢٨ .
[١٠] المصدر نفسه .
[١١] وهم قبيلتا الأنصار : الأوس والخزرج .
[١٢] ابن شهرآشوب ، المناقب / ٢ ، ص ٢٣٥ .
[١٣] المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
[١٤] محمد جواد الطبسي ، ص ٢٤٦ .
[١٥] ابن طيفور ، ص ٣١ .
[١٦] السقيفة : ص ٩٨ .
[١٧] شرح نهج البلاغة / ج١٦ ، ص ٢١١ .

إن فاطمة الزهراء عليها السلام عندما تضع صنائع الإمام علي عليه السلام أمام أعينهم في خطبتها تلك تنير في عقولهم دلالات المقارنة بينه والآخرين أينما كانوا ، وهي القائلة لهم : (قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ جماحها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه ، مكدوداً في ذات الله ، مجتهداً في أمر الله ، قريباً من رسول الله ، سيداً في أولياء الله ، مسمراً ناصحاً ، مجداً كادحاً ، لا تأخذه في الله لومة لائم)[٢٣] .

ولم تتوقف الزهراء عليها السلام عن الصدح بقول الحق في الوصي علي بن أبي طالب حتى بعد اعتزالها الناس ، فها هي أم سلمة دخلت عليها فقالت لها : كيف أصبحت عن ليلتك يا بنت رسول الله ؟ قالت : أصبحت بين كمد وكرب فقد النبي (ص) وظلم الوصي ، والله حجبه أصبحت إمامته مقتصة على غير ما شرع الله في التنزيل ، وسنها النبي في التأويل ، ولكنها أحقاد بدرية وترات أحدية كانت عليها قلوب النفاق مكتمنة لإمكان الوشاة فلما استهدف الأمر أرسلت علينا شآبيب الأثار من مخيلة الشقاق ، فيقطع وتر الإيمان من قسي صدورها ، وليس علي ما وعد الله من حفظ الرسالة وكفالة المؤمنين أحرزوا عائدتهم غرور الدنيا بعد انتصار ممن فتك بآبائهم في مواطن الكروب ومنازل الشهادات)[٢٤] .

إن بنت النبي عليها السلام تعلم علم اليقين إلى أين هي الأمور سائرة ، ولكنها في خطبها العصماء هذه ، وكلماتها الغراء ترسل لمن حولها ولمن جاء بعدها رسائلها الإعلامية ، التي تهدف إلى شرح الأسباب والدوافع وهي العارفة أنها لن تتلقى من الجموع التي استهدفتها رسالتها أي نصرة وهي القائلة لهم : (ألا وقد قلت الذي قلته على معرفة مني بالخذلان الذي خامر صدوركم واستشعرته قلوبكم ، ولكن قلته فيضة النفس ونفثة الغيظ وبثة الصدر ومعذرة الحجة ..)[٢٥] .

وهناك خطبة – رسالة إعلامية – أخرى للزهراء عليها السلام في ظلامة فدك وأهل البيت أوردها الطوسي في أماليه قال : هذا حديث وجدته بخط بعض المشايخ رحمهم الله ذكر أنه وجده في كتاب لأبي غانم المعلم الأعرج ، وكان مسكنه بباب الشعير ، وجد بخطه على ظهر كتاب له حين مات

---

[١٨] كشف الغمة / ج٢ ، ص ١٠٥ .
[١٩] بحار الأنوار / ج٨ ، ص ١٠٥ .
[٢٠] الاحتجاج / ج١ ، ص ١٣١ .
[٢١] أمالي الطوسي ، ص ٦٨٠ .
[٢٢] دلائل الإمامة ، ص ٣٠ . نقلاً عن : محمد جواد الطبسي ، حياة الصديقة ، ص ٢٤٢ وما بعدها .
[٢٣] المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .
[٢٤] ابن شهرآشوب ، المناقب / ٢ ، ص ٢٣٤ .
[٢٥] ابن طيفور ، ص ٢١ .

، وهو أن عائشة بنت طلحة دخلت على فاطمة عليها السلام فراتها باكية ، فقالت لها : بأبي أنت وأمي ، ما الذي يبكيك ؟ فقالت لها صلوات الله عليها : (أسائلتي عن هنة حلّق بها الطائر وحفي بها السائر ، ورفع إلى السماء أثراً ، ورزئت في الأرض خبراً ، إن قحيف تيم ، وأحيدك عديّ جاريا أبا الحسن في السباق ، حتى إذا تقربا بالخناق ، أسرّا له الشنآن وطوياه الإعلان)[٢٦] .

وبقيت أم الحسن عليها السلام تؤدي ما عليها من حق إزاء الإسلام ونبيه ووصيه حتى الرمق الأخير ، فلما مرضت عليها السلام المرضة التي توفيت بها دخل النساء عليها فقلت كيف أصبحت من علتك يا بنت رسول الله ، قالت : أصبحت والله عائفة لدنياكم قالية لرجالكم ...، ويحهم أنى زحزحزها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ومهبط الروح الأمين الطبن[٢٧] ، بأمور الدنيا والدين ألا ذلك هو الخسران المبين وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا والله منه نكير سيفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله ، ويا لله لو تكافئوا على زمام نبذه رسول الله صلى الله عليه وآله لساربهم سيراً سجحاً لا يكلم خشاشة ولا يتعتع راكبه ولا وردهم منهاً روياً فضفاضاً تطفح ضفتاه ولا صدرهم بطانا قد تحرى بهم الري غير متجل منهم بطائل بعمله الباهر وردعه سورة الساغب ولفتحت عليهم بركات من السماء)[٢٨] .

فالزهراء عليها السلام إذن لم تكن تطالب ببقعة من أرض اسمها فدك .. أو بإرث مادي ، وهي الزاهدة العابدة ، المنصرفة عن ملذات الدنيا ، بل كانت تطالب (بالحق) وإرجاعه إلى أهله الشرعيين ، فقد جعل رسول الله (ص) الخلافة في علي بن أبي طالب زوجها[٢٩] .

فقد أثبت جميع المؤرخين ، وأهل السير ، أن الزهراء سلام الله عليها لم تكن تهمها فدك أو غيرها مما تركه والدها الرسول الكريم (ص) ، بل كانت وقفتها تلك رسالة وجهتها إلى الأمة الإسلامية وناقوس خطر دقته ، لضياع حق الإسلام والمسلمين في الحفظ قبل أن يكون حقها وحق زوجها علي عليه السلام .

لقد أزالت الزهراء (ع) الغشاوة عن أعين من انقلب على عقبيه ، وهي عندما تلقي على مسامع النسوة هذه الموعظة الباهرة في توضيح سبب الانقلاب (وما نقموا من أبي الحسن) ؟! تساؤل

[٢٦٢٦] عبدالكريم العقيلي ، ظلامات فاطمة الزهراء ، ص ١٠١ . نقلاً عن : الأمالي للطوسي : ١/ ٢٠٤ ح ٣٥٠ .
[٢٧] الطبن : لغة الفطين والطبنة : الفطنة جمع طِبن .
[٢٨] ابن طيفور : ص ٣٢ – ٣٣ .
[٢٩] مريم فضل الله ، ص ٢١٣ .

استنكاري ، يستفز النفوس المؤمنة ليعيدها إلى الصواب ، فالإمام كما وصفته زوجته متنمراً في ذات الله ، لا على عيال الله وخلقه ، لقد زحزحوا الحق إذن عن آل بيت النبي أو بالأحرى عن علي الطبن بأمور الدنيا والدين والخبير بحال المسلمين وسبل إصلاحهم ..

لقد قدمت الزهراء عليها السلام في خطبتها هذه صوراً رمزية وتصويرية واضحة الدلالة على الجانبين ؛ لو كان الوصي علي هو الخليفة المختار بعد النبي ، أو لم يكن ، كيف سيمسي حال الأمة الإسلامية ، بأي بلاء سيبتلون إن نكصوا . في عبارات قل نظيرها في الخطب والأقوال كيف لا ؟ وهي سيدة النساء العاقلة الحكيمة ذات الفصاحة والبلاغة ، لم يجود مثلها في النساء .

قالت السيدة عائشة : (ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله (ص) من فاطمة)[٣٠].

لقد رأت فاطمة الزهراء (ع) قومها يستبدلون الذنابى بالقوادم[٣١] والعجز بالكاهل ، فهل تتركهم يركنون إلى الذي هو أدنى دون الذي هو خير دون أن ترشدهم وتجزيهم النصح في بضع كلمات غرر أضحت خير مثال على رسالة متكاملة الخصائص أدتها بنت سيد البشر على أكمل وجه ، فلم تدع لهم من منقذ للاعتذار .

ويمكننا الإشارة هنا إلى جملة نقاط امتازت بها هذه الوسيلة الإعلامية المتقدمة ومنها :-

١- كانت خطب الزهراء عليها السلام خير وسيلة للاعتراض والمعارضة ، فكانت راية رفعتها خفاقة في وجه المغتصبين حقها وحق زوجها علي وهي الحريصة على تضامن المسلمين ، وإعلاء كلمة الدين ، ولكن موقفها المتصلب هذا ، كان لابد منه لتبين للناس حق علي بالخلافة ، وتزيل الغشاوة عن أعين بعض المسلمين السابحين في لجج الضوضاء .

٢- مثلت خطبة الزهراء عليها السلام في المسجد النبوي الشريف نقطة التقاء وإصغاء لأكبر عدد ممكن من جمهور المسلمين ، جاؤوا لسماعها والإصغاء إلى ما ستقوله في مكان يعتبر مركز القيادة السياسية وأمام من وضع قائداً للدولة يحوطه جمع من أمراء القوم وأكابرهم .

٣- أذهلت خطبة الزهراء القوم بسعة أفقها وجزيل قولها وبلاغتها اللامتناهية ، والمستمدة عنفوانها وألقها وقوة حججها من آيات القرآن الكريم وأحاديث سيد الخلق ونبي الرحمة .

---

[٣٠] المصدر نفسه ، ص ٢١٥ .
[٣١] ابن طيفور ، ص ٣٣ .

٤- كانت خطب الزهراء (ع) بحججها أمضى من حد السيف ، حيث كان الحق ينبلج من بين ثنايا الحروف والكلمات ، وكانت تركز في استشهاداتها إلى قول الله تعالى .

٥- بدت الزهراء (ع) كصاحبة قضية رأي عام ، كاملة السيطرة على الموقف الشعبي ، وقد أخذت بمجامع القلوب والأعين التي بكت لمقالتها ولتجسيدها كامل الحضور النبوي المفقود بينهم .

٦- كانت خطب الزهراء عليها السلام أداة إعلامية متكاملة الأداء والتأثير بمن حولها وسردت بوصف بلاغي معجز أحقية ومكانة ومزايا أبي الحسن زوجها وأخ الرسول وابن عمه وسانده وعضيد أمره في حياته وبعد وفاته .

٧- بلغت الزهراء (ع) في خطبتها الثانية للنساء أقصى درجة التحذير والتذكير واستشراف الآتي عندما أخذت بوصف الصفات القيادية الربانية التي يمتلكها علي وكيف ستؤول الأمور بهم في الحالين .. ، لو كان علي خليفة لهم أو لا يكون ، فأعطت الدوافع والأسباب وخلصت إلى النتائج .

لقد أضحى لموقف الزهراء عليها السلام ذاك ، امتداداته في التاريخ ، فتذكر لنا السير والمراجع التاريخية ، وقفات مشرفة لنسوة حفظن للإمام علي (ع) ولائهن المطلق وألقين بشهاداتهن في مجلس معاوية غير آبهات بالعواقب !، وإذا كانت خطب الزهراء عليها السلام قد جاءت في حياة أبي الحسن عليه السلام فإن كلام وبلاغات تلك النسوة قد جاءت بعد وفاته .

لقد جد معاوية في طلب محبي الإمام علي (ع) وتعقبهم وقتلهم شر قتلة ، انتقاماً منهم ، ولم تسلم من شره النساء ، عن العباس بن بكار[٣٢] قال : حدثنا أبو بكر الهذلي عن الزهري وسهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قالا : لما قتل علي بن أبي طالب عليه السلام بعث معاوية في طلب شيعته فكان في طلب عمر بن الحمق الخزاعي فراغ منه فأرسل إلى امرأته آمنة بنت الشريد فحبسها في سجن دمشق سنتين ، ثم إن عبدالرحمن بن الحكم ظفر بعمر بن الحمق في بعض الجزيرة فقتله وبعث رأسه إلى معاوية وهو أول رأس حمل في الإسلام ، فلما أتى معاوية الرسول بالرأس بعث به إلى آمنة في السجن وقال للحرسي إحفظ ما تكلم به حتى تؤديه إلي وأطرح الرأس في حجرها ففعل هذا فارتاعت له ساعة ثم وضعت يدها على رأسها وقالت واحزناً لصغره في دار هوان وضيق من ضيمه سلطان

[٣٢] ابن طيفور ، ص ٨٧ .

نفيتموه عني طويلاً وأهديتموه إلي قتيلاً فأهلاً وسهلاً بمن كنت له غير قالية وأنا له اليوم غير ناسية)

.

لقد لاحق معاوية أولئك النسوة ممن وقفن في صف الإمام في حياته وفي حروبه ، وأخذ يستجلبهن ويستنطقهن في مجلسه علهن يرجعن عن حبهن لعلي خوفاً من سلطانه وحكمه تارة أو بالبذل لهن والبذخ عليهن تارة أخرى ، ولكن هيهات لقد استنطق معاوية النسوة فنطقن بما لا يرضيه ولا يسره وليسجل لهن التاريخ رسائلهن هذه التي بثت على الملأ ذاك الزمان وطبائع رجالاته ، وحيثيات وقائعه ، فكانت تلك الخطب والبلاغات من النسوة رسائل إعلامية أدت أفضل دور إعلامي لذاك العهد .

وقد ذكر ابن طيفور كلام لعدد منهن ، وهن ؛ أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب رحمها الله ، وسودة بنت عمارة ، والورقاء بنت عدي ، وبكارة الهلالية ، وأم الخير بنت الحريش البارقية ، وآمنة بنت الشريد ، وأم سنان بنت خيثمة بن خرشة ، وعكرشة بنت الأطش[٣٣] ، والدارمية الحجونية ، وجروة بنت مرة بن غالب ، وأم البراء بنت صفوان ، ويزيد عليهن في العقد الفريد بن عبد ربه الأندلسي ، الذكوانية[٣٤] .

إن أبرز ما يميز هذا الكلام الذي أدلت به النسوة في مجلس معاوية هو :-

١- إن معاوية هو من سعى لرؤيتهن ، فمنهن من جيء بهن إلى مجلسه في الشام ، والبعض الآخر سأل عنهن وأمر باستقدامهن إليه في موسم الحج ، ولو قيض الأمر إليهن لما أحببن لقاءه . أنظر قول الزرقاء لموفد معاوية (إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلي فإني لا آتيه ، وإن كان حتم فالطاعة أولى)[٣٥]

٢- أقصحت النسوة من الوافدات على معاوية عما في نفوسهن من حب ثابت لعلي وآل البيت وإيمان حقيقي بالله ورسوله ووصاياه للمؤمنين .

٣- أظهرت النساء في كلامهن بقاءهن على العهد ومبدئية موقفهن على الرغم من تغير السلطة والسلطان وتعاقب الولاة ، فلم يبدلن أبا الحسن بمعاوية رغم كرمه معهن وحسن وفادته لهن .

---

[٣٣] أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، حققه وشرحه وعرف أعلامه / محمد التونجي ، المجلد الثاني ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، ص ٩٠ . [يذكر أن الاسم الأطرش وليس الأطش كما جاء في بلاغات ابن طيفور ، ص ١٠٣ .

[٣٤] المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

[٣٥] هكذا أوردها الأندلسي ص ٨٧ . أما ابن طيفور فأوردها هكذا (إن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إلى لم أرم من بلدي هذا وإن كان حتم الأمر فالطاعة له أولى بي) ص ٥١ .

٤- أولئك النسوة كن طلائع لجموع من النساء المؤمنات اللواتي غمر ولائهن لولاية علي بن أبي طالب المجالس التي ضمت كل مبغض ومقاتل ومعادي لعلي من عمر بن العاص ومروان ابن الحكم وأمثالهم .

٥- ما يؤكد فاعلية هذه الرسائل الإعلامية وبعد أثرها في النفوس والتاريخ ، أن كل من كان في المجلس عند معاوية كان يحفظ كلام النساء في حب علي حتى معاوية نفسه رغم مرور السنين .

٦- كشفت خطب وبلاغات النساء خصال الجانبين ، ومن كان على الحق ومن اتبع الباطل منهم ، فأجزلن القول بحق علي وآل بيته ، وألبن الجموع على من عاداه حياً وميتاً . وما خطبهن تلك إلا شهادات صدق تؤطر بالذهب المصفى وتعلق في ضمائر المؤمنين بأن علي كان دولة الحق التي أعقبتها دول الجور والظلم .

٧- التفاوت في ذكر هذه الشهادات بين مصدر وآخر يدلل على وجود الكثير منها ولكنها طمست ربما بقصد أو بغير قصد .

إن أبرز ما اتسمت به أولئك النسوة هي الشجاعة والإقدام في حالتي السلم والحرب ، فلم ينكرن مواقفهن المشرفة في ساحات المعارك التي خاضها الإمام علي (ع) ، ولربما حاول معاوية أن يؤلب عليهن ، فيسأل أصحابه : (من منكم يحفظ كلام الزرقاء ، فقال القوم كلنا نحفظه)[٣٦] ، أو يقول معاوية : (ولكني والله أحفظه لله أبوك لقد سمعتك تقولين أيها الناس إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيا لها من فتنة عمياء صماء يسمع لقائلها ولا ينظار لسائقها ..)[٣٧] مما يؤكد عمق الأثر الذي تركته رسائل النسوة في تلك الجموع .

ولقد تكرر هذا القول من معاوية لكل واحدة من النساء المتكلمات عنده ، ها هي أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية تقدم عليه (فأنزلها معاوية مع الحرم ثلاثاً ثم أذن لها في اليوم الرابع وجمع لها الناس فدخلت عليه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال وعليك السلام وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الاسم ..) ثم سألها عن كلامها يوم قتل عمار بن ياسر .. ثم التفت إلى اصحابه فقال : (أيكم حفظ كلام أم الخير قال رجل أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد ، قال هاته ..)

---

[٣٦] ابن طيفور ، ص ٥٠ .
[٣٧] المصدر نفسه ، ص ٥١ .

فأخذت تؤلب الجموع بين الصفين في المعركة وتعدد صفات الإمام علي عليه السلام ... : (هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصديق الأكبر إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس[٣٨] ثم قالت : قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون .. فإلى أين تريدون يرحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وصهره وأبي سبطيه ؟[٣٩] خلق من طينته وتفرع من نبعته ، وخصه رسول الله بسره وجعله باب مدينته وأبان ببغضه المنافقين ، وها هو ذا مفلق الهام ومكسر الأصنام صلى والناس مشركون وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، ومزق به جمع هوازن ، فيا لها من وقائع زرعت في قلوب نفاقاً وردة وشقاقاً وزادت المؤمنين إيماناً . وقد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله)[٤٠] .

فلا يتمالك معاوية نفسه أن يقول لها : يا أم الخير ، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي ، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك .. فما كان جواب أم الخير على تهديد معاوية لها بالقتل .. قالت له : والله ما يسوءني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه[٤١] .

إن هذا التفاني في حب علي هو قاسم مشترك لكل الوافدات على معاوية ، فها هو معاوية يقول للزرقاء بت عدي بعد تذكيره بخطبتها الشهيرة يوم صفين ...: والله يا زرقاء لقد شركت علياً عليه السلام في كل دم سفكه فقالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير وسر جليسه قال لها وقد سرك ذلك قالت نعم والله لقد سرني قولك فأنى بتصديق الفعلّ فضحك معاوية وقال والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته)[٤٢] .

إن كل امرأة حضرت عند معاوية وسمع مقالتها ألقمته حجراً وهي تعدد صفات علي عليه السلام وجور معاوية وأن أحسن الوفادة والمقال .. أنظر لقول أروى بنت الحارث[٤٣] وهي عجوز كبيرة كيف لم تأخذها في الحق لومة لائم حين تقول لمعاوية : (لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن

---

[٣٨] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٩٤ .
[٣٩] وزوج ابنته وأبي ابنيه .. هكذا وردت في ابن طيفور ، ص ٥٧ .
[٤٠] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٩٥ .
[٤١] ابن طيفور ، ٥٨ .
[٤٢] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٨٧ . وجاءت هكذا في ابن طيفور (أحب إلي من حبكم له في حياته) .
[٤٣] أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم عمة رسول الله (ص) وإحدى فضليات النساء في الجاهلية والإسلام لها رأي راجح وشعر جيد توفيت حوالي سنة ٥١ هـ .

عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ، ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، بعد ان كفرتم برسول الله صلى الله عليه وآله فأتعس الله منكم الجدود وأضرع منكم الخدود ورد الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا صلى الله عليه وآله هو المنصور ،فوليتم علينا من بعده ، تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون ، وكان علي بن أبي طالب رحمة الله بعد نبينا صلى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى ، فغايتنا الجنة وغايتكم النار)[٤٤] .. وبعد قول طويل فضخت فيه معاوية وصحبه وأمهاتهم ، أجزل لها معاوية العطاء قال لها معرضاً بالإمام علي عليه السلام ، قال : لو كان علياً ما أمر لك بها . قالت : أنت تذكر علياً ؟ فض الله فاك (صدقت إن علياً أدى الأمانة وعمل بأمر الله وأخذ به وأنت ضيعت أمانتك وخنت الله في ماله فأعطيت مال الله من لا يستحقه وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها وبينها فلم تأخذ بها ودعانا (أي علي) إلى اخذ حقنا الذي فرض الله لنا فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها وما سألتك من مالك شيئاً فتمنّ به إنما سألتك من حقنا ولا نرى أخذ شيء غير حقنا أتذكر علياً فض الله فاك وأجهد بلاءك ثم علا بكاؤها[٤٥] وقالت :

ألا يا عيـن ويحـك أسـعدينا ... ألا وابكـي أميـر المؤمنينا[٤٦]
علـي خير من ركب المطايا ... وفارسـها ومـن ركب السفينا
ومن لبـس النعال أو احتذاها ... ومـن قـرأ المثـانـي والمئينـا
إذا استقبلت وجـه أبي حسين ... رأيـتُ البـدر راق الناظـرينا
ولا والله لا أنسـى علـيـاً ... وحسن صلاته في الراكعينا[٤٧]
الا أبلـغ معاويـة بن حرب ... فـلا قـرت عيـون الشـامتينا
أفـي شـهر الصيام فجعتمونا ... بخيـر الناس طـراً أجمعينا ؟
لقد علمت قريش حيثُ كانت ... بأنـك خَيـرها حسـباً وديـنا

[٤٤] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٩٦ .
[٤٥] ابن طيفور ، ص ٤٦ .
[٤٦] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٩٨ .
[٤٧] هذا البيت ذكره ابن طيفور دون عبد ربه الأندلسي .

وما كان معاوية ليجهل موقعه عند المؤمنين ، وإن الإمام علي عليه السلام قد ملك قلوبهم ، لذا سأل عكرشة بنت الأطرش عندما سلمت عليه بالخلافة ، فقال لها : الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين ، قالت : نعم إذ إن لا عليّ حي .

ولم يترك معاوية الفرصة حتى يذكر النسوة بمواقفهن في المعارك التي خاضها الإمام علي (ع) فيقول لها : ألست المتقلدة حمائل السيف بصفين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين : (أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .. إن معاوية دلف عليكم بعجم العرب غُلف القلوب ، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة دعاهم بالدنيا فأجابوه واستدعاهم إلى الباطل فلبوه .. هذه بدر الصغرى والعقبة الأخرى ... فكأني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون : هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله)[٤٨] .

إن معاوية كان يبحث عن الجواب لسؤاله الأبدي : لم أحب الناس علياً وأبغضوه ، لذا أخذ يسأل النسوة هذا السؤال واحدة تلو الأخرى ، فسودة بنت عمارة تقول له : أي والله ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب .. وتذكر كيف أن حب علي عليه السلام وأتباع الحق هو ما حملها على قول الحق فيه شعراً وكلاماً في صفين فيجيبها : فوالله ما أرى عليك من أثر علي شيئاً ، فبكت وأنشدت :

صلـــى الإله على جسم تضمنه قبـــر فأصبح فيـــه العـــدل مدفونـــا

قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقرونا[٤٩]

قال لها : ومن ذاك ! قالت : علي بن أبي طالب عليه السلام . قال : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك . فذكرت موقفه من والي جائر اقتص منه أبا الحسن عند التجائها إليه ..، أما الدارمية الحجونية ، فقد واجهها معاوية بالسؤال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتني ، ووالليته وعاديتني ؟ قالت : أو تعفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما إذ أبيت ، فإني أحببت علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر وطلبك ما ليس لك بحق ، ووالليت علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وآله من الولاية وحبه المساكين وإعظامه لأهل الدين . وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك وشقك العصا ..)[٥٠] .

[٤٨] ابن عبد ربة الأندلسي ، ص ٩٠ .
[٤٩] ابن طيفور ، ص ٤٧ – ٤٨ .
[٥٠] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٩١ .

وهكذا تذهب في تعداد مناقب خليفة حق سابق واراه الثرى ومثالب سلطان جور ما خشيت في قول الصدق أمامه ولم تأخذها في قول الحق لومة لائم .. حتى ضج معاوية من صدق النساء وتمسكهن بولائهن وجرأتهن عليه فقال لعكرشة : (هيهات يا أهل العراق نبهكم علي بن أبي طالب فلن تُطاقوا)[٥١] . أو قوله لسودة بنت عمارة : (هيهات ، لمظكم[٥٢] ابن أبي طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئاً ما تقطمون ..)[٥٣] .

لقد كان علياً عليه السلام في بلاغات النساء كما وصفته جروة بنت مرة بن غالب : (جاز والله في الشرف حداً لا يوصف وغاية لا تعرف ..)[٥٤] . أو كقول أم البراء بنت صفوان حين قتل عليه السلام : فقالت :

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب لمحتف أو ناعل

حاشـــا النبـــي قـد هـددت قواءنـــا فالحق أصـبح خاضعاً للباطل

فقال معاوية : قاتلك الله يا بنت صفوان ما تركت لقائل[٥٥] .

وهو عند المؤمنات كما قالت أم سنان بنت خيثمة بن خرشة :

هـذا علـــي كالهـــلال يحـفـــه وسط السماء من الكواكب أسعد

خير الخلائق وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منه تهتدوا[٥٦]

إن خطب النساء وبلاغاتهن لعبت دوراً إعلامياً متميزاً في عهد الإمام علي عليه السلام وما بعده من عهود ، وأدت رسالتها في ترسيخ المفاهيم الإسلامية التي أقامتها دولة أبي الحسن عليه السلام ، وبينت مزايا ولاية الإمام ونقائص ولاية معاوية ، كما وثقت لأحداث ووقائع ذاك العهد وما ألقي فيها من شعر وأقوال ، وأرخت لها ، وحفظتها من الاندثار وجعلت الألسن تتناقلها شفاهاً لصدقها وحرارة إيمانها ومبدئيتها .

---

[٥١] المصدر نفسه .
[٥٢] لمظكم : ذوقكم وعلمكم .
[٥٣] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٨٥ .
[٥٤] ابن طيفور ، ص ١٠٩ .
[٥٥] المصدر نفسه ، ص ١١١ .
[٥٦] ابن عبد ربه الأندلسي ، ص ٨٨ . وجاء العجز عند ابن طيفور ، ص ٩٢ هكذا (وكفى بذاك لمن شناه تهدد) .

مصادر البحث

١- ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تقديم إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

٢- أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ، (المولود ببغداد سنة ٢٠٤ والمتوفى سنة ٢٨٠ هجرية) ، كتاب بلاغات النساء ، طبعة مصر ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م .

٣- أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، حققه وشرحه وعرف أعلامه / محمد التونجي ، دار صادر ، بيروت – لبنان .

٤- زين الدين محمد علي بن شهرآشوب ، مناقب آل أبي طالب ، انتشارات ذوي القربى ، تحقيق يوسف البقاعي ، ط٣ ، ١٤٢٩هـ ق ، ١٣٨٧ هـ ش ، المطبعة سليمان نزادة ، قم – طهران .

٥- عبدالكريم العقيلي ، ظلامات فاطمة الزهراء في السنة والآراء ، ط١ ، ١٩٩٦م – ١٤١٧هـ ، بيروت – لبنان .

٦- محمد جواد الطبسي ، حياة الصديقة فاطمة – دراسة وتحليل ، مؤسسة بوستان كتاب قم ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، ط١ ، ١٤٢٣هـ ، ١٣٨١ ش ، قم .

٧- مريم نور الدين فضل الله ، المرأة في الإسلام ، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٧٩م – ١٣٩٩هـ .